

الالبانيين ، وهزمهم وحلفناؤهم من نابلي . ولكن اسكندر بك نجح
في إثارة الالبانيين ، وعقد صلحا مع الأتراك ثم نقضه لأن اليابا وعده
بالمساعدة فحارب الأتراك إلى أن اضطر إلى أن يرحل إلى روما يطلب
المساعدة والعون ، ولكنه مات في أوائل سنة ١٤٦٨ وبذا استطاع
الأتراك أن يخضعوا بقية البانيا بسهولة .

لقد كلف اسكندر بك الأتراك غاليا في الفتح ، وإذا كان قد نجح
في شيء فلقد نجح في تأخير فتح البانيا ، وأوقف مدة التيار التركي
الغنيف الذي ربما كان اكتسح إيطاليا .

بعد موت اسكندر بك سيطر السلطان محمد الثاني على البانيا
تماما وطرده البندقية من ممتلكاتها الساحلية فبدأ انكماشها واضمحلالها .

فتوحات السلطان الفاتح في آسيا

وأما في آسيا فلقد كان نجاح السلطان محمد الثاني تاما . فاستطاع
أن يقضى على بقايا الأغرقيق في آسيا الصغرى ، فاستولى على سينوب
وطربزون . وكان لطر بزون امبراطور أغرقيق ليست له إلا المدينة
وضواحيها فحاول تقوية مركزه بالاتفاق مع أوزون حسن الذي كان
يسيطر على بعض اجزاء من أرمينيا والعراق وفارس . ولكن لما علم
أوزون حسن بمجيء السلطان بجيش كبير طلب السلام وترك الأمبراطورية

الأغريقية في آسيا الصغرى لتلقى مصيرها المحتوم . فلقد توجه السلطان إلى المدينة وحاصرها برا وبحرا ، وبعد فترة صغيرة سلمت المدينة في سنة ١٤٦١ وبتنا تلاشت دولة الأغر يق نهائيا في آسيا الصغرى ، وأصبح الأناضول تركيا إسلاميا لا سيطرة فيه للأغر يق إلا في فترة صغيرة تلت الحرب الأوربية الكبرى الأولى .

وأصبح للعثمانين السيطرة التامة على بحر مرمره وبحر الأرخبيل والبحر الأسود ، وخاصة بعد أن أرسل السلطان الصدر الأعظم لفتح بلاد القرم وتم له ذلك .

وأما فيما يختص بأماره قرمان ، ففي سنة ١٤٦٣ مات أمير هذه البلاد ، وكان يدفع الجزية للسلطان محمد الفاتح . وترك ابناء سبعة اختلفوا فيما بينهم على وراثه الحكم ، فتدخل السلطان وقضى قضاء مبرما على استقلال هذه الأماره في سنة ١٤٧١ . وبتنا أصبحت الأناضول عثمانية وانتهت نهائيا بقايا النظام السلجوقي القديم .

ولكن حدود العثمانيين الشرقية ما كانت آمنة أولا لغزو جنود التتار ثانيا لعداوة أوزون حسن السابق الذكر للعثمانيين ، فلقد حاول هذا الرجل نهب البلاد الواقعة على الحدد الشرقية ، وفعلا نجح في ذلك في إحراق بعض المدن الأخرى ، وهاجم قرمان ، فقابله الامير

مصطفى بن محمد الفاتح ، وأسر قائد الغزاة ، وكبله بالحديد وأرسله إلى أبيه ، وقامت وقائع أخرى كان النصر فيها حليف الأتراك أيضا . وحاول أوزون حسن هذا ، وقد أحس بالخطر على بلاده - فتح باب المفاوضات مع رودس والبندقية وطلب منهما إمداده بالمدافع وبعض رجال المدفعية ، وفعلا أنجده البندقية ، فعاد إلى غزو الحدود العثمانية ، ولكن قواته دحرت ، وهرب هو من ميدان القتال بحياته ، فعاد إلى الحدود الشرقية أمنها وسلامها .

على أن فتوحات محمد الفاتح وضعت أساس الخطة التي سيتبعها خلفاؤه فيما بعد ، فلقد أصبح للعثمانيين حدود غير مستقرة مع كل من مصر وفارس والمجر ، وكان لا بد من وقوع الاصطدام بين العثمانيين وهذه الدول عاجلا أو آجلا .

علاقة السلطان الفاتح

بجنوه والبندقية وإيطاليا .

كان لوجود العثمانيين في أوروبا وحلولهم محل الأغر يق في البلقان وفي القسطنطينية أثر كبير على علاقاتهم مع جنوه والبندقية .

لقد عمل السلطان محمد الثاني فعلا على المحافظة على العلاقات السلمية بينه وبين هاتين الدولتين أثناء حصاره لمدينة القسطنطينية ،

فلم يهاجم غلطه ، وهو مستعمرة جنوية مستقلة على حدود القسطنطينية ، ولكنه عندما انتهى من فتح مدينة قسطنطين طلب من الجنوبيين هدم حصون غلطه وأسوارها وفرض عليهم الجزية مما عمل على سوء العلاقات بينه وبين جنوه .

وعلاقة السلطان السيئة مع جنوه هي التي دعته إلى التفكير في القضاء على ممتلكاتها في البحر الأسود . ولذا أرسل حملته المشهورة إلى بلاد القرم إلى ثغر كافا . كانت الحملة بقيادة الصدر الأعظم ومكونة من أسطول ضخم وأربعين ألف مقاتل .

وكانت مدينة كافا قوية وغنية ، فلقد كان يطلق عليها اسم القسطنطينية الصغيرة . ولم تستطع المدينة الوقوف أمام قوات السلطان العظيمة ، فسامت بعد حصار أربعة أيام ، وكانت الغنائم والأسلاب كثيرة واصطفى السلطان محمد الثاني ألفا وأربعمائة من أبناء نبلائها للخدمة في صفوف الانكشارية ، ثم استولى الأتراك على شبه جزيرة القرم كلها ، وأصبح خانات التتار في هذه الاجزاء الواقعة في شمال البحر الاسود تابعين للدولة العثمانية لمدة تقرب من ثلاثة قرون .

ولم تكن علاقة السلطان محمد الثاني بالبنادقة خيرا من علاقاته مع جنوه ، فلقد اصطدمته بقوات البندقية على سواحل بلاد الاغريق ،

وفي جزر بحر الأرخبيل ، وكانت نتيجة ذلك الاضطدام المساح أن استولى العثمانيون على ايويويا ولسبوس ولبنوس وسفالونيا وبعض الجزر الأخرى .

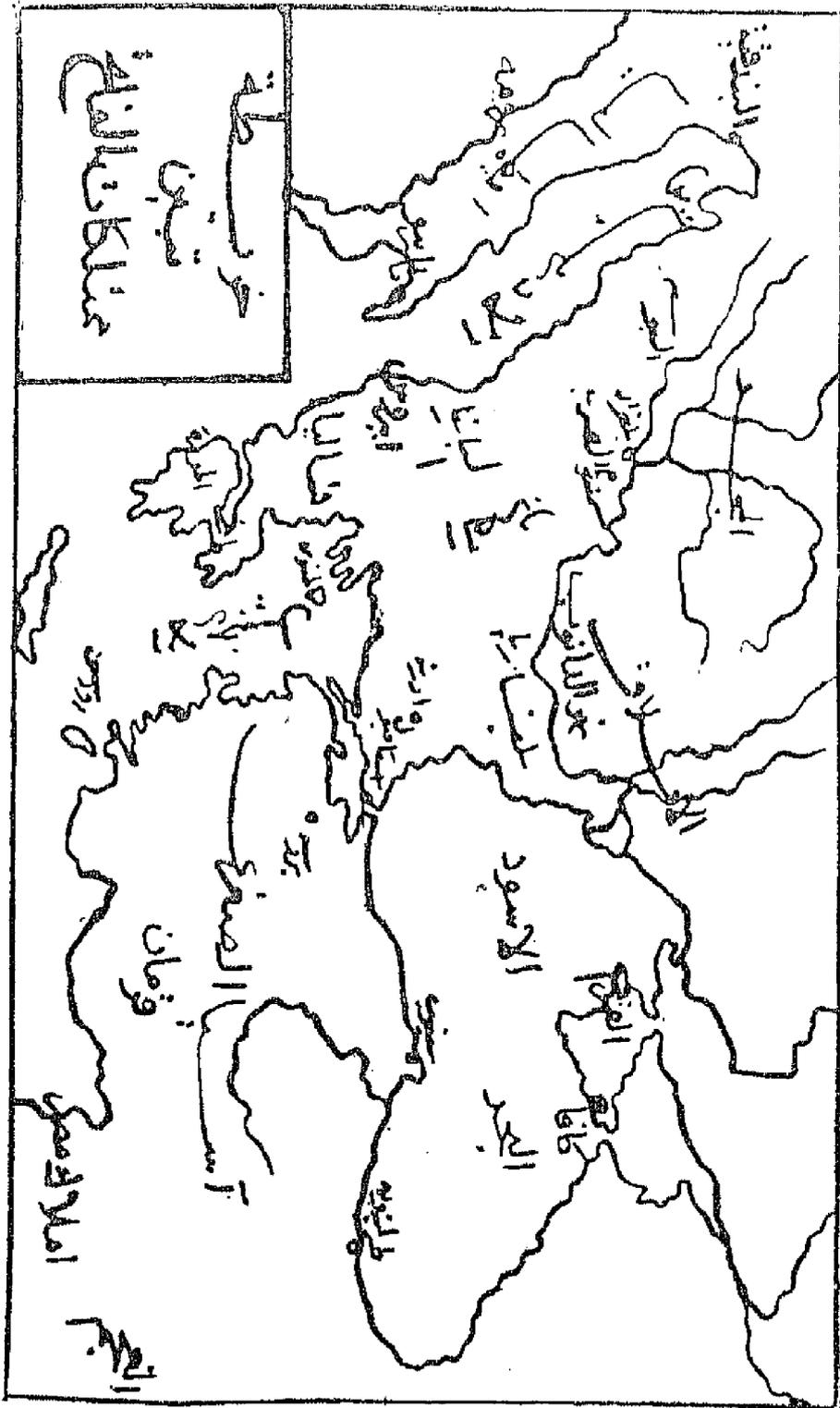
وبعد أن استولى السلطان على البانيا والبوستة والهرسك زاد اتصاله بمتلكات البندقية على الشاطئ الشرقى للبحر الأدريانى . وأراد السلطان الفاتح أن يعاقب البندقية على موقفها العدائى ازاءه فى كثير من الظروف ، فأرسل فى سنة ١٤٧٧ جيشا قويا إلى ممتلكاتها يحاول تهديد المدينة نفسها ، ففزعت البندقية وأقامت التحصينات المنيعة ، ولكن الاتراك اخترقوا كثيرا من هذه التحصينات وهزموا جنودها مرارا واكتسحوا بلادها إلى قرب المدينة ، وارتجف شيوخ المدينة فى قصورهم لهول الانباء التى وصلت إليهم ورأوا بأعينهم النيران تشتعل فى قراهم ، ولكن لحسن حظهم لم يكن السلطان الفاتح ينوى الاستيلاء على هذه المدينة ، ورجعت جنوده وسراياه محملة بالأسرى وبالغنائم الكثيرة .

ولذا أسرعت البندقية فعقدت صلحا مع السلطان محمد ، وتعهدت بأن تساعد السلطان بأسطول مكون من مائة سفينة إذا هاجمته دولة أخرى ، ووافق السلطان على أن يساعدها بمائة ألف جندى إذا هاجمها أعداؤها .

وكان السلطان محمد الثاني يفكر في إخضاع إيطاليا ، ولكنه كان دائماً يؤجل ذلك المشروع أولاً لظروف العثمانيين الحربية في البلقان ولعناد هونيادي واسكندر بك ، ولذا بعد ما اختفى هذا الحصان من المسرح السياسي في البلقان ، جهز السلطان محمد الفاتح الاستعدادات العظيمة البرية والبحرية ، وأحب أن يمهّد لذلك بالاستيلاء على جزيرة رودس حتى لا تصبح شوكة في جانب ممتلكاته العظيمة . وكانت في يد فرسان القديس يوحنا الذين وطدوا مركزهم فيها في أوائل القرن الرابع عشر ، وأصبحوا قوة مستقلة لا يستهان بها ولقد وصلت للسلطان معلومات عن هذه الجزيرتو عن حصونها ، ولذا أرسل مسيح باشا في ابريل سنة ١٤٨٠ بقوة كبيرة مكونة من مائة وثمانين سفينة وجيش قوى ومدفعية كبيرة ، واستطاع الباشا أن ينزل في الجزيرة ، واستولى على بعض الأماكن فيها ، وحاصر المدينة ، فدافعت عن نفسها دفاعاً مشهوداً ، وكادت تسقط لولا جشع الانكشارية وسوء سياسة القائد لقد استطاع الأتراك بمدفيعتهم القوية إحداث ثغرات في أسوار المدينة ، ورفع العلم العثماني فعلا على الأسوار ، وكادت المدينة تؤخذ لولا أن أعلن مسيح باشا في هذه اللحظة أن الغنائم كلها ستحفظ للسلطان ، ففت ذلك في عهد المهاجمين وغضبت الجنود المهاجمة ،

ورفضوا مساعدة إخوانهم الذين اقتحموا الأسوار ، وانتهز المدافعون ذلك الخلل ، فردوا الفرق الأولى المهاجمة على أعقابها ، واضطر مسيخ باشا إلى رفع الحصار والسودة ، وأنقذت رودس لمدة نصف قرن من الزمان .

وفي نفس الوقت الذي هاجم فيه الأتراك رودس أنزلوا جنودهم بقيادة بطل القرم إلى إيطاليا ، على شاطئ أبوليا ، وساروا نحو تارنتوا ، وكانت تعتبر في ذلك الوقت مفتاح جنوب إيطاليا ، فلم تستطع الوقوف طويلاً أمام قوة الأتراك وسلمت في أغسطس سنة ١٤٨٠ و قتل سكانها واستبيحت المدينة . فكانت هذه الحملة الحربية درساً قاسياً لإيطاليا لتدخلها في شئون البلقان ، ونهديداً لمركز البابوية في إيطاليا ذاتها . لقد وضع السلطان محمد الفاتح قدمه في إيطاليا واستولى على ميناء صالحة لتوغل جنوده في داخلها ، وأخذ في تجهيز معدات عظيمة لتمام مشروعه ، ولم يكن يعرف وجهتها الحقيقية غيره ، فلقد كان يحتفظ دائماً بسرية مشاريعه لنفسه ، ولكنه مات بغتة في وسط جيوشه في ٣ مايو سنة ١٤٨١ ، فانقذت إيطاليا من الخطر العثماني .



عصر الفتح وتنظيماته

أنشأ السلطان محمد الثاني الفتح دولة عظيمة ، هي غير منازعة أقوى الدول الكبرى في القرن الخامس عشر، ووحدها أرضاً وشعباً فأصبحت كتلة متماسكة تمتد من أعلى نهر الفرات إلى الأدرياتي، ومن البحر الأبيض إلى نهر الدانوب والقرم ، وأزال بقايا الدول التي كانت تبجهد بغيش ناصب في آسيا الصغرى أو تناوى الأتراك العثمانيين في البلقان ! واتخذ للأتراك عاصمة جديدة عظيمة لها تاريخ مجيد جميلة الموقع متوسطة المركز بين بلادهم الآسيوية وممتلكاتهم الأوربية ؛ تشرف على البر والبحر ، وتتفق مع ما أصبح للعثمانيين من مجد وقوة وجبروت ، ولم يعد بعد عهد الفتح للأغريق ولا للبنادقة ولا للجنوبيين أو الأغريق أو الصرب قوة ولا ذكر في البلقان إلى أن جاء القرن التاسع عشر . ومهدت فتوحات ذلك السلطان العظيم الطريق لفتوح العثمانيين التي سيقوم بها خلفاؤه في الشام ومصر والعراق والمجر وأواسط أوربا .

كان السلطان الفتح مصححاً كبيراً ومنظماً من الطراز الأول ، كما كان رجل حرب من العبقرية النادرة التي شهدتها التاريخ .

وكان رجل ثقافة واسع الاطلاع في العلم والأدب يتذوق الشعر ويستلهم الفن ، كما كان طويل الباع في الادارة والحكومة .

رتب السلطان الحكومة الجديدة لدولته العظيمة ، واستفاد من كل الظروف المحيطة به ، واستلهم كل الحضارات التي ترك تراثها للعثمانيين فهو سلطان مسلم يحكم دولة واسعة الأطراف إسلامية قبل كل شيء ، ولكنه في نفس الوقت جلس على عرش الأباطرة البيزنطيين في مدينتهم وعاصمتهم فأصبح خليفة القياصرة كما حل محل الأمراء الكثيرين الذين كانوا يحكمون في البلقان .

حكم السلطان الفاتح دولة تتكون من أجزاء مهمة في شرق البحر الأبيض لها حضارات شرقى البحر الأبيض ، حضارات امتزج فيها الشرق والغرب معاً ، وتقابلت فيها نظم سياسة مختلفة وقوانين وعادات متباينة ، وديانتان عظيمتان هما المسيحية والاسلام ، فكان لا بد من مراعاة هذه الحقائق جميعها والاستفادة منها في إقامة صرح دولته الجديدة العظيمة .

اهتم محمد الثانى باصلاح النظام الداخلى للدولة ، وعنى قبل كل شئ بفشر الفلماينية والسلام التركى فى امبراطوريته الواسعة التى تجمع عناصر كثيرة من خلائق مختلفون فى الجنس واللغة والدين والعادات ،

فبجانب الأتراك المسلمين وهم عمود الدولة الفقري ، يوجد الأغريق والصقالبة على اختلاف أنواعهم والبلغارو الألبانيون ، يوجد الأرثوذكس والكاثوليك ، عاش هؤلاء جميعا قبل الحكم العثماني حياة اضطراب وفوضى لا يعرفون للأمن طعاما ونسوا من زمن بعيد كل شيء عن الطمأنينة والاستقرار ، فلا بد إذن من وضع نظام قوى للحكم يعطى هؤلاء ما فقدوه من حرية وراحة وسلام ، ولا بد من وضع نظام خاص لسكان الدولة من غير المسلمين ينظم العلاقات بينهم وبين جيرانهم من المسلمين ، بينهم وبين الدولة التي تحكمهم وترعاهم .

كان أول ما عنى السلطان محمد الثاني منذ أن تولى السلطنة العمل على استقرار العرش لأنه عرف من تجارب التاريخ العثماني أنه على استقرار مركز السلطان يتوقف كل شيء في الدولة ، تتوقف قوتها ونظمها ، رأى الخلل والاضطراب يلم بالدولة إذا ما برز المتنافسون على العرش وأوقدوا نيران الحرب الأهلية ، ولم يخف عليه ما عانته الدولة من حروب أهلية كادت تؤدي بحياتها في عهد من سبقوه من السلاطين كما قرأ بنفسه قصة الانقسام والتفرق في البلقان ، وما آلت إليه حال أهلها من ضعف واضمحلال ، ولذا عمل على استقرار مركز السلطان

ولم يكن هناك قبل عهده قانون يحدد من يلي العرش العثماني بعد وفاة السلطان فوضع السلطان الفاتح سنة جديدة ، وإن كانت تظهر للكثيرين سنة قاسية سيئة ، وهي أن السلطان الذي يلي الحكم له الحق في قتل إخوته الباقين حتى لا ينازعه أحد منهم على العرش في المستقبل فجعل بذلك قتل الاخوة سنة مشروعة ، ولكنه بررها أمام نفسه وأمام الناس بأن غرضه منها هو : « سلام الدنيا والعالم » فوجود الاخوة ، كما فهم هو من التاريخ العثماني ، من العوامل التي تثير الفتنة بين المساهمين فقتلهم أهون في نظره من إثارتها .

وكان يرى أن يكون مركز السلطان محترما بين رجال دولته فكان من أعداء التبذل وإن كان من أنصار التبسط ، لم يسمح لأحد من رجال دولته بالجلوس على مائدته جعل ذلك قانوناً ، فوضع بذلك تقليداً هو ألا يكون للسلطان إلا صحبة ممتازة يأنس بها ، زمرة من رجال الدين والعلماء والفلكيين والأطباء ، فلم يكن للفاتح إذن اتصال برجال الدولة إلا حين تقضى بذلك أعمال الدولة وإلا إذا كان لهؤلاء الرجال صفات علمية أو أدبية أو فنية تتناسب وذوقه ، ولذا كان رجال الدولة بلا استثناء يرهبون ويخشون جانبه ويخافون بطشه .

وليس معنى ذلك أن فاتح القسطنطينية لم يكن يختلط برجاله أو

بجنوده أو علمائه ففي أوقات الحرب أو الاستعداد لها كان دائم الاتصال بوزرائه قواده وجنوده يشرف عليهم بنفسه ، ويقوى من روحهم المعنوى ويعدهم وطمئنيهم بكل ما يستطيع تنفيذه ، وفي أوقات السلم في مجالسه الأدبية وحلقاته الشعرية كان يتبارى مع الأدباء والشعراء والعلماء في تذوق الأدب وقول الشعر ونقد الكتب .

ولقد وضع السلطان محمد الفاتح قوانين الاتيكيك والحفلات في الدولة العثمانية ، وهو بلا شك متأثر بالحياة الاجتماعية للأباطرة البيزنطيين وباتساع الدولة ودخول عناصر أجنبية غربية فيها ، فوضع بذلك أساس التشريعات في القصر السلطاني العثماني .



ووجه عنايته كذلك إلى قوانين الدولة ، فحاول تقنين الشرع واختار لذلك من العلماء الأجلاء من يستطيع القيام بهذه المهمة العظيمة ووضع قانون ناميه ، وهذا القانون كما يقول هو « هو قانون أبائى وأجدادى سيعمل به خلفائى من بعدى من جيل إلى جيل » فحاول أن يقنن الأوامر والمراسيم التى أصدرها فى أوقات مختلفه السلاطين من سبقوه . ولم يكن هذا التقنين كاملا بأى حال ولكنه وضع الأساس .

هذا القانون مكون من ثلاثة أبواب وهو يتعلق بمناصب الموظفين
وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ في التشريعات والاحتفالات، وهو
يقرر كذلك العقوبات والغرامات .

ونظم السلطان الفاتح الحكومة الجديدة ، وساعده في هذه الناحية
الصدر الأعظم محمد الفرمانى . وهذه الحكومة حكومة إسلامية قبل
كل شىء قائمة على تفوق العنصر الإسلامى أيا كان أصله أو جنسه ، ولقد
جعلها السلطان تركز على دعائم أهمها الوزارة والقضاء والمال .

أما من حيث الوزارة فلقد جعل الفاتح عدد الوزراء أربعة وجعل
للصدر الأعظم قيادة الجيش ورياسة الديوان — وإن كان الفاتح قد
اهتم بالأشراف على الأمور في كثير من الأحيان بنفسه . أما من حيث
النظام الإدارى ، فلقد أبقى السلطان النظام القديم بأدخال بعض
تعديلات بسيطة فيه . وهذا النظام يقضى بتقسيم الدولة إلى ولايات
لكبرى منها بايلربايات (جمع بايلرباى) وللصغرى البكوات الصناجق
وترك لبعض الإمارات الصقلبية فى أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال
الداخلى ، فكان يحكمها أمراء منها ، ولكنهم تابعون للدولة ينفذون
أوامر السلطان بكل دقة ، وهو يميزهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو
فكروا فى الثورة على حكومته .

ولقد اهتم السلطان الفاتح اهتماماً خاصاً بالجيش ، فالجيش في نظره أساس الدولة وركنها الأول ، فعنى بأعادة تنظيمه و بمسألة قيادته ، فكان لكل فرقة أغا هو قائدها وجعل لأغا الأ نكشارية حق التقدم على القواد الآخرين فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذي جعل له انسلطان القيادة العليا للجيش .

ونال عنصر الرقيق في الجيش عناية خاصة ، فكما كتب إلى أوزون حسن يقول « إن دولتنا هي منزل الإسلام و إن سراج إمبراطوريتنا ليضى من قارب الكافرين » . كان السلطان محمد يشمر أن دولته أكبر دولة إسلامية ، ولذا فهو يعمل على تجديد شبابها وقوتها متبعاً سنة من مضى من السلاطين العثمانيين ، وذلك بأدخال عناصر جديدة فيها ، هذه العناصر التي أثبتت كفايتها وحدارتها . لقد كان مؤمناً بمهمته الإسلامية والعالمية ، فهو يرى ضرورة الجهاد في سبيل الله ، ويعتقد أن نظم الدولة يجب أن تخدم هذه الغاية النبيلة ، هذه الغاية التي ترمى إلى ضم العناصر المسيحية النشيطة إلى هذه الدولة الناهضة القوية .

عنى السلطان محمد الثاني بفرق المشاة عناية خاصة في الوقت الذي ظلت فيه أوربا تعتمد على نظام الفرسان كأهم فرقة في جيوشها ، ومن المقطوع به أن الدول التي اهتمت بنظام المشاة في ذلك الوقت كان لها نصيب السبق

في أوروبا ، فتركيا من ناحية الشرق ، وأسبانيا من ناحية الغرب كانتا أقوى دول في أوروبا من الناحية الحربية ، في النصف الثاني للقرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر . وإذا كان عهد الثاني قد اهتم بنظام الجيش ، فلقد كان أهم عوامل استقرار النظام فيه الانتظام في دفع مرتباته ، فوجه الساطان عنايته بصفة خاصة إلى هذه الناحية ، بل واهتم بزيادتها من حين لآخر ، ولقد أعاد تنظيم الانكشارية ، وناط برئيسها أعمال البوليس بمدينة استامبول ، فلا عجب إذا أصبح جيش الفاتح الجيش المنصور الذي لا يقهر .

ونبع في عهد الفاتح عدد من القواد النابيين الذين عاونوه في حروبه وكان لهم ضلع كبير في انتصاراته ، وربما كان أهمهم محمود باشا وأحمد باشا ، وكل من هذين الرجلين تولى الوزارة والصدارة العظمى ، وكل منهما من أصل مسيحي ، وارتفع مكاناً علياً في الدولة .

فأما محمود باشا فكان يطلق عليه ولي الدين محمود ، ولد من أبوين صربيين ، وكما تقول رواية من أب أغريقي وأم صربية ، وأتى به إلى أدرنة إلى بلاط السلطان مراد الثاني حيث تثقف ثقافة إسلامية ، ثم نبغ في الدولة ، فعينه السلطان محمد الثاني صدراً أعظم في سنة ١٥٤٣ بعد إعدام خليل باشا ، وكان يصحب السلطان في كل غزواته ، ثم

كلفه السلطان بأخضاع الصرب ، وهو الذى قاد الحملة البحرية إلى
طرابزون وسينوب ، بينما كان السلطان نفسه يقود الحملة البرية. واشترك كذلك
معه فى حروب المجر والبوسنة ، وحكم صنجق غالبولى ، ولقد بنى هذا
الرجل مسجداً ومدرسة فى استامبول ، وكان محباً للعلم يتذوق الأدب
ويقول الشعر وله ديوان عدلى .

أما أحمد باشا كبيديق فأصله جندى انكشارى أوصلته كفايته
ومقدرته إلى منصب القيادة ، وثم على يديه زوال الحكم السلجوقى
شبهائياً من آسيا الصغرى ، وهزيمة آرزون حسن وإخضاع كيليكياء الأتراك .
وكصدر أعظم تم على يديه فتح القرم ، وهو قائد الحملة الإيطالية التى
استولت على تارنتو . ولقد اشترك ذلك الرجل فى الأحداث السياسية
فى عهد السلطان بيابريد الثانى ابن الفاتح مما أدى إلى اضطهاده .



وكما اهتم السلطان الفاتح بالجيش اهتم بالمسائل المالية فهى أساس
مهم من أسس الدولة . فدقق فى تنظيم جمع الضرائب حتى تكون
الحكومة مطمئنة إلى موارد دخلها ، وجعل السلطان محمد الثانى
الأشراف على الأمور المالية للدقردار ، وهى وظيفة ترجع إلى أصل
فارسى ، وكان للدولة على عهد الفاتح دفتر دار واحد لرومىلياً عين له
(١٢)

السلطان مساعدا يختص بالشئون المالية لآسيا الصغرى .

وعنى بالقضاء فهو من عمد الدولة كما عنى برجاله وتحديد وظائفهم ومناصبهم ، وجعل الاشراف عليه لقضاة العسكر ، فكان لهم مركزهم في الدولة فهم أعضاء في الديوان ويتقدمون على الوزراء ، والسلطان الفاتح هو الذى أعطى المفتى لقب شيخ الإسلام فأصبح ذلك المركز وخاصته بعد عهد الفاتح من أعظم مراكز الدولة .

وكانت قوانين الدولة تختلف على حسب ملها وإن كان القانون الأساسى للدولة هو الشرع ، فهو قانون الحكومة الذى يحدد علاقات المساهين ، وعلاقتهم بغيرهم من سكان الدولة ، فهو يحدد علاقة المساهين بالذميين .

ولقد ترك للذميين حق اتباع كنائسهم الخاصة وقوانين ملهم المختلفة وتقاليدهم فيما يتعلق بمسائل الحكم المحلى ، وفيما يختص بمسائلهم الشخصية كالزواج والطلاق ، وكذا المسائل الدينية ، فهؤلاء الذميون تركوا ليتبعوا فى حياتهم نظمهم وتقاليدهم القومية ! فكان حكم الأتراك لهذه الرعية حكما غير مباشر ، ولم تشرك هذه الرعية فى حياة الدولة السياسية أو العالمية إلا بقدر صغير محدود ، ولكنها تمتعت بسلام وأمن لم تعرف مثلهما قبل الحكم التركى .

وراعى الأتراك في القضاء العدالة التامة بين المسلمين والمسيحيين إلى حد أن إحدى الفتاوى قد صدرت تقول بأنه إذا قتل ألف من المسلمين مسيحياً واحداً مخلصاً للسلطان دون حق يجب قتلهم ، ولقد فرض النظام العثماني على المسيحيين ضريبة الرؤوس وضريبة الأراضي ولم تكن حالهم سيئة في عهد الحكم العثماني في العصور الأولى ، بل كانت أماً بهم الفرص للتعاون مع العثمانيين في مناصبهم وحرورهم .
ونظراً لأن معظم رعايا السلطان الفاتح المسيحيين كانوا من الأرثوذكس يجب أن نشير هنا إلى أن فتح القسطنطينية لم يضيف من مركز الكنيسة الاغريقية بأى حال ، فاقدم كان جورج سكولاريوس المسمى جناديوس والذي اختاره الفاتح بطريركاً من أشد أعداء فكرة اتحاد الكنستين الشرقية والغربية ، بل لقد أعلن أن الخضوع للكنيسة الغربية اللاتينية نقمة على المسيحية ولعنة على الأباطورية وسيعقبه حتماً انتهاء الدولة البيزنطية ، وفعلاتم ما تنبأ به .

كان السلطان الفاتح يرغب في أن تستمر للكنيسة الأرثوذكسية قوتها ونظامها حتى يستطيع أن يسترضى الرعايا الأرثوذكس ، وأن يسهل لهم قبول الحكم الاسلامي الجديد . ولذا احتفظ السلطان بنظم الكنيسة العتيقة ، وأبقى لها الكثير من سيطرتها القديمة ، فطالب من

القساوسة الأرثوذكس الاجتماع ليبتخبوا من بينهم بطريركا ، واعتمد من اختاروه وهو جناديوس ، واحتفل بانتخابه على النظام وبالآبئة التي كانت متبعة في مثل هذه الاحتفالات في عهد الأباطرة المسيحيين ، وقال له « لتكن بطريركاً على صداقتي في كل وقت وظرف ولتتمتع بكل الحقوق والامتيازات التي كانت لمن سبقك » ولكي يرفع من مركز البطريرك في الدولة الجديدة أهدها فرسا جميلا ، وجعل له حرسا خاصا من الإنكشارية ، وصحبه باشاوات الدولة إلى المكان الذي أعده . ثم اعترف بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية ووضعها تحت حمايته ، وأمرها بأقامة حفلاتها الدينية كالاعتاد ، وجمعت واشترت كل آثار الننديسين ومخلفاتهم التي نهبت وسلمت إلى الكنائس والأديرة .

ولكن كان على الكنيسة الجديدة أن تخضع للسلطان كبقية النظم الأخرى الموجودة في الدولة ، ففي أي لحظة يستطيع السلطان عزل البطريرك أو كبار رجال الدين لإراد لقضائه ، ولكن من الناحية العملية ، ما كان السلطان ياجأ إلى اضطهاد الكنيسة أو رجالها بل كانوا دائما موضع حمايته وأكرامه . وكانت فكرة الاضطهاد الديني غير موجودة في ذهن الفاتح ، وإذن نعمت الكنيسة الأرثوذكسية في عهده وعهد خلفائه بهدوء واستقلال لم تنعم بمثله قبلا حتى في عهد كثير من

الأباطرة البيزنطيين أنفسهم ، وأخلص القسس الطاعة لذلك السيد العظيم .

قوى إذن مركز الكنيسة الأخرقية ، ورضى الأغر يق عن ذلك الحكم الجديد الذى ترك لهم حرية المعتقد ومنحهم استقلالاً دينياً غير منقوص ، ولقد أبقي الفاتح بعض الكنائس على حالها ، ولم يمنع المسيحيين من إقامة شعائر دينهم فيها وأصبح حتى الفئار المظل على القرن الذهبى حلقة الاتصال بين القسطنطينية الإسلامية والقسطنطينية المسيحية .

وفى حتى الفئار المظلم هذا وفى منازل القمامة عاشت العائلات الأخر يقية العظيمة مثل الكومنى والبالولوجى والدوكا ، عاشت كآثار ارستقراطية عظيمة عريقة ، عاشت لا أراضى لها ولا جاه إلا الأصل المجيد الذى تنتمى إليه .

لقد أصبحت البطريركية الأغر يقية فى استامبول موثلاً للمسيحية وعرا كز للقومية الأغر يقية إلى أن حان الوقت لظهور الأغر يق كأمه لها كيانها الخاص حين ضعفت الدولة العثمانية فى أوائل القرن التاسع عشر وأما القسطنطينية فلقد أصبحت استامبول فى فم الأتراك ، وأصبح هلال بيزنطة رمز القوة العثمانية . وعالماً لعظمتها .

وأما من حيث إعادة الحياة والهدوء إلى هذه المدينة العظيمة فلقد أمر السلطان محمد الفاتح حين دخولها بوقف القتل ، ولم يسمح باستباحتها بعد الأيام الثلاثة التي حددتها والتي وعد بها جنوده ، وكان قد قتل من سكان المدينة العدد الكثير ، وشرد العدد الكثير ، وأسر العدد الكثير ، ولكن ما كان الفاتح يعمل على خراب المدينة العظيمة مطلقاً ، فهو رجل مقدر للجمال يتذوق الفن ، وإنما كان عليه أن يعيد لها مركزها القديم وعظمتها السابقة بنشر الأمن والطمأنينة فيها وإنشاء حياتها الاجتماعية والاقتصادية من جديد حتى تصبح صالحه لأن تكون عاصمة لأقوى دولة في أوروبا وآسيا معاً . فأعاد إصلاح أسوارها ، وبنى فيها حصناً منيعاً له سبعة أبراج ، وعمل على تشجيع من بقي سكانها على الإقامة فيها والاستقرار ، وطلب من كثير من العائلات التركية والأغريقية والألبانية سكنها ، وعاد إليها عدد كبير من سكانها الذين كانوا هربوا منها كما لجأ إليها عدد لا يستهان به من مهاجري الأرمن والفرس والعرب . ولقد اهتم السلطان الفاتح بإنشاء المباني العظيمة في هذه المدينة ، فبنيت فيها دار السعادة العتيقة بقرب الجامع الذي كان أنشأه السلطان بايزيد خان الأول ، فكانت أول دار أنشأها السلاطين العثمانيون بعد فتح هذه المدينة ، وكذلك أمر السلطان الفاتح ببناء جامعته المشهور

باسمه ، وهو واقع على التل الرابع في المدينة ، بناه المهندس خرستو
تولاس على أنقاض كنيسة سان أبوتر ، وهذا الجامع يرى من البحر
من مسافة بعيدة وله مآذنتان ، وقد أصابته الزلازل فيما بعد ، فأعاد
بناءه السلطان مصطفى الثالث . ومن منشآت السلطان الأخرى جامع
أبي أيوب الأنصاري ، وجامع الشيخ البخاري بجانب باب أدرنه ،
وجامع الانكشارية (ارطه جامعي) . كما أنشأت السلطانة زوجته
سني خانوم جامعاً في أدرنه ، وكذا بنته السلطانة عائشه أنشأت جامعاً
في نفس هذه المدينة التي كانت تعتبر ثاني مدن الدولة العثمانية . وأمر
السلطان ببناء ثمان مدارس حول جامعها الكبير ، وشيد خلفها منازل
للطلبة ومستشفى (دارالشفاء) وحمامات ، وبقربها خانات لتزول
المسافرين ، كما أنشأ مدرسة للعلوم الشرعية ، وبالجامع مكتبة هي الأولى
من نوعها في استامبول ، وبقربها يوجد قبر عليمة هانم أم السلطان
محمد الثاني ، ويقول رامبرتي (الذي كتب في سنة ١٧٣٤) « بأن جامع
السلطان له (إمارة) متصلة به يسمح لكل شخص بالتزول فيها حيث
يستضاف ثلاثة أيام ، فيعطى العسل والأرز واللحم والخبز وغرفة للنوم
وكان يهواها الآلاف من الناس ، وبجانبها الحمامات والسبل الجميلة » .

وفي استامبول ميدان سمي باسم الفاتح ، وهو « فاتح ميداني »
واق ميدان ، وهناك أيضاً محلة تنسب إليه فيها جامع ومدرسة ، ولها
سوق خاصة شهيرة تعقد فيها ويجد الناس فيها ما يحتاجون إليه
بالأسعار المناسبة .

ومن المساجد التي أنشئت في العاصمة في عهده ككتشوق أيا صوفيا
على بحر مرمره ، وكانت في الأصل كنيسة القديس سرجيوس وباكوس
وجامع زيرق على القرن الذهبي وكان كنيسة أيضاً وحول جامعاً وسمى
على اسم ملا زيرق ، وكذلك جامع محمد باشا وجامع مراد باشا سميا باسم
وزيرين للسلطان الفاتح .

وأما قصر السلطان ، فكان كبيراً وإن إمتاز بالبساطة ، فقد كان
السلطان الفاتح ميالاً إلى الوحدة والتفكير ، منصرفاً إلى دراسة فنون
الحرب والأدب والفن ، وكان له حريمه الخاص ، وإن لم يكن معروفاً
عنه حب الترف أو الانهماك في الملذات والشهوات ، كان للحريم مقر
خاص به ، وبه الغرف اللازمة لأبناء السلطان وأمهاتهم السلطانات
وكانت السكوة تجرى على الحريم عدة في الأعياد والمواسم والمناسبات .
وبالقصر أما كن خاصة بالفتيات العذارى ، وكلمن من أصل رقيق ،
جلبن عن طريق الشراء أو الأسر ، وكان عدد كبير من نساء الحريم

قد دربن لأعمال الخدمة والطهي وغيرها ، وكان السلطان عادة يصطفى لنفسه من الحرير الخالص من يشاء ، فيعطين عند ذلك حجرات منفصلة متميزة ، ومن لم يحظين باختيار السلطان يزوجهن السلطان عادة لوزرائه وقواده ، أو المقربين منه ، ويحل محلن غيرهن ممن سرن في نظام تعليمي معين . وكان ذلك النظام يعنى بتدريب الفتيات وتعليمهن إلى سن الخامسة والعشرين .

وأما العاصمة نفسها ، فاقد تغير وجهها بالفتح العثماني ، فلقد تحولت كثير من الكنائس إلى مساجد ، وجعلت المساجد العظيمة التي قام بتشيدها السلطان العثماني ووزرائه للمدينة فخامة وبهاء فتانا ، وروعة أخاذة بماذنها العالية ، وقبابها المستديرة ، كما كانت مقابر السلاطين العثمانيين الذين خلفوا الفاتح قطعاً رائعة من الفن ، وفي هذه المباني الجديدة لم يندثر الفن البيزنطي بأى حال ، وكثرت الخانات والتسكيا والزوايا ، ولم يمض نصف قرن على الفتح العثماني إلا وشيدت القصور العظيمة التي تزينها الحدائق الجميلة ، وهاجر إلى المدينة تحت رعاية السلطان عدد كبير من عرب اسبانيا ويهودها الذين اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية ، وأذاقتهم أصناف العذاب ، وقامت الأسواق العظيمة ، وعاد إلى المدينة رونقها وحركتها ، نتيجة للتسهيلات الكثيرة التي وضعها العثمانيون للمهاجرين والتجار .

ولقد بقي في المدينة الخالدة (كما يقول رامبرتي الذي زارها وكتب عنها في سنة ١٥٣٤) كثير من الآثار العظيمة القديمة التي ما زالت محتفظة برونقها فقناطر المياه وأقواس النصر والأعمدة ما برحت تشهد بماضي هذه المدينة المجيد . وقرر رامبرتي أيضاً أن هذه المدينة لا زالت متمتعة بجمالها وبهجتها ، وهذا يدحض زعم هؤلاء الذين يقولون إن الأتراك خربوا المدينة ، وقضوا على كثير من آيات الفن فيها ، ولم ينته عهد الفتح إلا والمدينة أهلة بالسكان عامرة بالأسواق والمصانع الحربية وغيرها ، فلقد أحياها الفتح العثماني ، أصبح للمدينة حياة جديدة زاهرة بعد أن تفوق فيها العنصر التركي ، وتركزت فيها الدولة الإسلامية الجديدة بقوتها وعظمتها .

ويدعى بعض المؤرخين الأفرنج أن القسطنطينية فقدت مركزها باستيلاء العثمانيين عليها ، وهذا غير صحيح ، ولا ينطبق على الواقع بل بالعكس لقد عظم مركز القسطنطينية بعد أن احتلها العثمانيون ، فبعد أن كانت عاصمة لدولة منهاره مضمحلة أصبحت عاصمة لأقوى دولة في الشرق والغرب ، لقد كانت القسطنطينية حين احتلها العثمانيون عاصمة بدون امتلاكات ، عاصمة بدون دولة حقيقية . ولذا لم تفقد القسطنطينية مركزها في أوروبا ولا بالنسبة لآسيا . بل قوى مركزها في البلقان ، ولم تفقد شرفيتها بأي حال

ولا صبغتها الارثوذكسية ، فاقدم حافظ الساطان محمد الفاتح على هذه الصبغة التي كادت تندثر بالاتحاد مع الكنيسة الغربية لو طالت حياة الدولة البيزنطية قليلا .

لقد ظلت القسطنطينية ، استامبول ، عاصمة للشرق الأدنى غير منازعة لمدة تزيد على أربعة قرون ، منها يستمد حياته وقوته ونشاطه السياسي ، وينظر إليها كافة سكان الشرق الأدنى كدينهم العظيم ، يهفو إليها قلوبهم ، ويحمن إلى زيارتها والتمتع بجمالها وروعتها نفوسهم ، لم تفقد المدينة جمالها ولا عظمتها بل زاد هذا الجمال وهذه العظمة ، ولم تفقد مركزها الجغرافي أو الاستراتيجي أو الحربي أو السياسي ، بل بالعكس زادت هذه الأهمية ، فاستامبول ظلت مركز أوروبا سياسيا من الطراز الأول ، لا يقل مركزها عن مركزا عواصم الدول الكبرى الحديثة ، وظلت إلى الآن سيدة المضائق حتى بعد أن هجرها الأتراك إلى انقره ، وسيظل اسمها ما بقيت مقرونا باسم منشأها قسطنطين الأكبر وفاتحها محمد الثاني العظيم .

« » »

ولم تكن ناحية السلطان الفاتح الثقافية أقل من النواحي السياسية أو الحربية أو التنظيمية .

كان السلطان الفاتح يحترم العلماء ورجال الدين ، وفاق في ذلك كل من سبقه من السلاطين العثمانيين . لقد عمل على توطيد مركز العلماء ، وعلى إكرامهم ، وتوفير وسائل المعيشة والكرامة لهم ، كان الفاتح يعتبرهم بحق ركنا هاما من الأركان الأربعة الأساسية التي تقوم عليها دولته العظيمة . كان يعتقد أن القوة الحربية وحدها لا تبني مجد أمة ولا تجعل لها استقرارا ، فهو رجل عظيم الثقافة مستنير محب للعلم ويتذوق الأدب ويغشى نواديه ويحفظ الشعر وكثيرا ما يتميل به في الظروف المختلفة وخاصة الشعر الفارسي ، وكان هو نفسه يحسن قول الشعر وله ديوان باللغة التركية مخطوط كتبه عماد من أشهر خطاطي إيران في عهد السلطان سليم الأول ، ثم طبع في برلين ولكنه ناقص كما يقول شهاب الدين سليمان بك (صاحب تاريخ يكي عثمانلي تاريخ أدبيات) وديوانه يسمى ديوان عوني وكله في الغزل .

ومن شعره .

ساقيا می صوک که برکون لاله زار آلدن کيدر
ابر يشور فصل خزان باغ وبهار آلدن کيدر

عزه أولما دلبرا حسن وجماله قبل وفا
باقى قالما زكىمه به نقش ونكار ألدن كيدر

* * *

جكرم ياره لى خنجر جو وستمك
صبرمك جامه سنى درغرادى مقراص غمك
سجده كاه أيلر ايدى كعبه محراب كبي
كو بك ايجنده ملك كورسه نشان قدمك

◊ ◊ ◊

(ياساقى الكأس أدر الراح قبل أن تدبل الخزامى
قبل حلول الخريف وانتضاء الربيع وزوال نضرة البستان
لا تمنعى الوصال أيتها الغانية المفتونة بحسنتك وجمالك
فألزينة والحسن يوما زائلان

* * *

إن سيف دلالك قد نفذ بين ضلوعى
وإن سلاح تعذيبك قد قطع صدرى
ولو رأت الملائكة آثار قدميك
لسجدوا فيها كأنها كعبة المحراب)

كان الفاتح دائماً على تشقيف نفسه وزيادة معلوماته فكان له معلمون اختارهم من بين العلماء البارزين يقرأ عليهم الكتب المختلفة ويتلقى عنهم العلوم مثل خواجه زاده وابن الخطيب ، وكان كثير النظر في الكتب والرسائل التي يصنفها علماء عصره يفحصها ويقارنها ، وينتقدها ، وكانت له مكتبة خاصة عني بجمعها واختيار كتبها وعين الملا لطنى أميناً لها مدة من الزمن .

وعنى الفاتح بالعلم والتعليم والمتعلمين والمعادين ، فهو يعنى بالمتعلمين من حيث توفير سبل التعليم لهم والنفقة عليهم أثناء تعلمهم ، فمن بين هؤلاء المتعلمين من سيتولون وظائف التدريس والافتاء والتربية الإسلامية .

ولقد كاف الساطان الفاتح وزيره محمود باشا بأصلاح النظم التعليمية ، وكان ذلك الرجل خير من يقوم بهذه المهمة ، فترتبة إنسانية شرقية وهو أديب وعالم وشاعر ظاهر ، في عهد الفاتح انشئت المدارس العالية في المدن الكبرى إلى جانب المكاتب التي عممت في المدن والقرى ، وكان الفاتح يختار بنفسه العلماء الذين يقومون فيها بالتدريس ، وكان كثيراً ما يتباحث مع هؤلاء العلماء فيما يدرس ويسألهم عن أفاضل طلبتهم ليسرع إلى مكافأتهم وتعيينهم في وظائف التدريس ، كما فعل

مع ملا خسرو وتلميذه ابن مغنيسيا . ولقد وضع لهذه المدارس البرامج المنظمة من مواد دينية ولغوية ، من لغات عربية وفارسية ورياضة وأدب وفلك ، وكان يعطى للطلاب المتخرجين شهادات تسمح لهم بالقيام بالتدريس بعد هذه الدراسة المنظمة ، فيمنح الطالب لقب معيد ، ولكي يكون الطالب عالما (اماما) عليه أن ينبغ ويتعمق في دراسة الشرع الشريف والفقه ، وعليه أن يجتاز امتحانات عديدة في علم الكلام والتوحيد والأصول والفقه والشريعة الاسلامية قبلما يصل إلى هذه المرتبة .

وإذا استطاع الطالب بعد خمسة عشر عاما على الأقل النجاح اكتسب المجد الكبير والشرف والامتيازات الكثيرة ، فمن بين هؤلاء الطلاب والعلماء أساتذة المدارس العليا والقضاة الملات (ملارتبة علمية) والمفتون واستامبول افندى (قاضى الأستانة) وقضاة العسكر في أوروبا وآسيا والمفتى شيخ الاسلام ولقد وضع السلطان الفاتح نظاما مائيا (كادرا) خاصا لهؤلاء العلماء .

كان عصر الفاتح عصرا حافلا بدراسة الشريعة والفقه الاسلامي نادر المثال في التاريخ العثماني ، يدل على ذلك كثرة المؤلفين في هذه الدراسات ، وكثرة الكتب التي وضعوها باللغة العربية . وكان العلماء

كثيرا ما يجتمعون في حضرة السلطان ويتناقشون أمامه في المسائل
الفقهية واللغوية ، وكان كثيرا ما يشترك معهم ويحكم بينهم ، وقلده
في هذا وزراؤه وخاصة محمود باشا وسنان باشا الذي « كان من عاداته
احضار العلماء . . . واحضار الأطعمة اللطيفة » تناولها المناقشات
العامة .

وكان للعلماء في عصر الفاتح قوة روحية كبيرة ومقام سام لتقدير
السلطان لهم ولمكانتهم عند الناس ، وكانوا كبيرى الاعتداد بكرامتهم
فكانوا يحتجون إذا حدث تقصير في حق واحد منهم ، وكانوا
يهددون بالخروج من مملكة السلطان فكان لا يرد لهم طلب ولا شفاعة .
وكان الفاتح يتبسط معهم إلى درجة يروى معها صاحب الشقائق التعمانية
(ووالده عاصر الفاتح) في ترجمة المولى فخر الدين العجمي . « ربما يمر
السلطان محمد قدام بيتنا (بيت فخر الدين) ذاهبا إلى زيارة أبي أيوب
الأنصارى . . . ويخرج أبي إلى الباب ويسلم عليه ويقدم له شربة ،
ويقول السلطان محمد والله اشرب هذه الشربة ويناوله والذي بيده
فيشرب منه ثم يسلم عليه وينذهب » .

كانت استامبول في عهد الفاتح مؤثلاً للعلماء من كل البقاع
الاسلامية فلقد كان السلطان يستقدمهم وينال في اكرامهم وفادتهم
ويسهل لهم كل وسائل الإقامة ، فعل ذلك مع القوشجي الذي أهداه
رسالة في علم الحساب المسماه المحمديه ومع سراج الدين الخطيب وقطب
الدين العجمي والشيرواني وغيرهم .

وأهم المدارس التي أنشأها الفاتح المدارس الثمان حول جامع
في استامبول ومدرسة أباصوفيا ومدرسة أبي أيوب الانصارى ،
ونحن نعرف أن الفاتح حول ثمانى كنائس في استامبول إلى جوامع
وألحق بكل منها مدرسة ، كما أنشأ مدارس في بعض المدن المهمة الكبرى
وكان العلماء البارزون في الفقه والشريعة في عهد الفاتح كثيرين ،
وقد ذكرهم وترجم لهم وعدد مناقبهم المولى أحمد بن مصطفى الشهرير
بطاش كبرى زاده في كتابه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية .
وعلى رأس هؤلاء العلماء ملا خسرو محمد بن قراموز الرومى المتوفى
سنة ١٤٨٥ م وهو رومى اعتنق الاسلام ، وتنامد على الشيخ حيدر
الهروى الذى كان مفتياً في البلاد الرومية ، وعين مدرساً في مدرسة
أدرنة المسماه شاه ملك ، وبعد فتح القسطنطينية عين قاضياً لاستامبول
والعسكر المنصور في نفس الوقت الذى قام فيه بالتدريس في مدرسة

أيا صوفيا ، وكان السلطان محمد الثاني يحبه ويحترمه ويفخر بوجوده في دولته ، ووكل إليه تقنين الشرع الاسلامي ، ولقد تولى ذلك الشيخ الجليل وظيفة الافتاء ، ولقد كتب عنه السيوطي وترجم له ابن العماد في شذرات الذهب ، ولهذا العالم مؤلفات كثيرة في الشريعة الاسلامية والفقهاء منها مرقاة الأصول مع مرآة الوصول ، وغرر الأحكام في شرح درر الحكم والرسالة الولائية وكاشفات الشبهات العلائية وجملة رسالات أخرى مثل رسالة في الاستخلاف للخطبة ، وأخرى في أسرار الفاتحة .

ومنهم الشيخ أحمد بن اسماعيل الكوارني . تلتى تعليمه في القاهرة حيث كان موضع تقدير الامير جقمق ، وكان السلطان الغازي مراد الثاني يكرمه إكراما شديدا ، وعينه مدرسا لولده محمد ، ولقد عينه السلطان الفاتح مساعدا لقاضي عسكر ، ثم عينه قاضيا في مدينة بورصة ثم ولى الافتاء في آخر الامر ، ومات بعد عهد تلميذه العظيم ، وله نظم قدره في الدولة حضر السلطان بايزيد الثاني صلاة الجنائز عليه في سنة ٨٩٣ هـ . وقد ترجم له السخاوي في ضوء اللامع . وله غايات الاماني والبدور اللاوامع ، ولوامع العرز في شرح فوائد الدرر ، وكشف الأسرار عن قرآت الائمة الاخيار ، وغايات الزمان في تفسير الكلام الرباني

ومنهم الشاعر والفقيه جلال زاده خضر بك كتب النونية في العقائد
ومنهم مصلح الدين البروسوى كتب نقدا لتهافت الفلاسفة
ورسالة في الحركة ومنهم خطيب زاده بن تاج الدين ، وملا خيالى ،
ومد طفى القسطلانى ، وعلاء الدين عربى ، وعلاء قوشجى الذى كتب
الرسالة المفردية وعقود الجوهر والمعجز فى الطب ، ومنهم على بن محمد الدين
شاهرودى الهروى ، وهو من أحفاد الفخر الرازى ومن تصانيفه شرح
الارشاد وشرح المصباح فى النحو ، وشرح آداب البحث
وشرح العقيدة الروحية لابن سينا وله تأليف أخرى بالفارسية . ومنهم
ملا لطفى وهو صاحب رسالة فى تاريخ الحكمة ، وعبد الرحمن بن مؤيد
الذى يقال أن له من المؤلفات سبعة آلاف مجلد ! ، ومنهم تكسارى
وتاجر بك زاده وجعفر ، وسعدى شلبى ، وعلى جمالى ، وابن كمال ،
والمفسر أبو السعود الذى عرف باسم كمال باشا زاده .

ولابن كمال آثار ومؤلفات فى الفقه والتفسير وعلم الكلام والحكمة
والتاريخ والمعانى ، وكان ينظم الشعر باللغتين الفارسية والتركية . وأما
أبو السعود فكان قاضياً ثم تولى المشيخة الاسلامية فأصبح شيخاً
للاسلام ، ويقال أنه لما شاع خبر وفاته فى الحرمين صليت عليه هناك
صلاة الغائب ؛ ويروى أنه كان يصدر فى اليوم الواحد ألف فتوى ؛

وتفسيره للقرآن مشهور وشرحه لبردة البوصيري يدل على قوة في اللغة العربية واطلاع واسع في الأدب العربي ، وهو يتبع في أسلوبه السجع ويهتم بالصنعة اللفظية .

ومنهم محمد بن قطب الأزنيقي صاحب التعبير المنيف والتأويل الشريف ، وشرح الأوراد ورسالة في المعرفة وفتح مفتاح الغيب ، ولقد جمع هذا الرجل كما يقول ابن العماد صاحب شذرات الذهب بين الشريعة والطريقة والحقيقة . وظهر في الفلسفة كمال الدين مسعود الشرواني الرومي له رسالة في الابحاث الثلاثة المتعلقة بالكلام والمنطق والحكمة ، وله شرح السمرقندية ، وشرح المواقف ومنهم يوسف بن حسن القرمسطي كتب رسالة في المواقف ، والوجيز في أصول الدين ، وزبدة الوصول إلى علم الأصول ، ومنهم حاجي شابي الفناري صاحب رسالة على المبدأ الأول وشرح المواقف . وظهر في اللغة السيد محمد بن السيد حسن بن علي وله جامع اللغة ، ولطف الله شلبي وهو تلميذ التفتازاني له متصرفات الأسماء ومقدمات العلماء .

ومن أجل العلماء قدراً في عهد الفاتح من توسلوا إلى الله بالتقوى صادقين الشيخ آق شمس الدين ، ولقد دعاه السلطان إلى صحبته عند حصاره مدينة القسطنطينية ، ولقد بشر ذلك الشيخ أحمد باشا ، وهو

أخذ وزراء السلطان بالنصر وعين له وقت الفتح كما يروى صاحب الشقائق النعمانية ، وجمال الوزير هذه البشري إلى السلطان ، فلما قرب الوقت الموعود ولم تفتح المدينة خشي الوزير غضب السلطان ، فأسرع إلى الشيخ فوجده يبكي ويتضرع إلى الله ويسأله أن يتم نصره ، ثم أنزل الله نصره ودخل الأتراك المدينة في الوقت الذي عينه الشيخ فقال السلطان ما فرحت بهذا الفتح مثل فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمانى .

وكان السلطان يرسل إليه ويقربه ، ويروى أنه بعد إتمام فتح المدينة العظيمة التمس من هذا الشيخ الموهوب أن يريه قبر أبى أيوب الأنصارى فتوجه الشيخ ساعة وكشف عن موضع القبر فبنى السلطان عليه القبة والجامع .

هذه القصص مهما كان نصيبها من الصحة إن دلت على شيء فهي تدل على مقدار تعلق السلطان برجال الدين وأولياء الله الصالحين . وكان للسلطان محمد الفاتح روح اجتماعى طيب سمح فله من أعمال الكرم والجود والبر الشيء الكثير ، فلقد عين للأرامل والأيتام فى كل سنة النفقة والكسوة ما يفي بحاجتهم وبنى المستشفيات والسبل والحمامات المجانية .

وكان الفاتح يعاقب أهمية كبيرة على كشف قبر أبي أيوب الأنصاري وكذا كل الأتراك لما لصاحبه من قدر جليل وسابقة في الإسلام ونصرة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان البيزنطيون أنفسهم يحترمون قبره ويستسقون به فلم يكن قبره مجهولاً عندهم ، ولقد أصبح جامع أبي أيوب الأنصاري أقدس جامع في الأستانة وأصبحت الدولة العثمانية تقيم فيه حفلة السيف وهي حفلة تقام كلما ارتقى سلطان العرش فيذهب السلطان الجديد إلى هذا الجامع ، ويقلد سيف عمر بن الخطاب في حفلة عظيمة تشبه حفلة التتويج في الغرب الأوربي ، وعند ما يتقلد السلطان السيف يصلى ركعتين في ضريح أبي أيوب الأنصاري .

وأما من ناحية تذوق الأدب والفن ، فلقد كان الفاتح مغرمًا بالشعر يحفظه ويقولاه ويستمتع إليه ويفشى نواديه ، ويكرم أهله أياً كان موطنهم وجنسياتهم فكان يرسل بالهدايا والمنح إلى شعراء الهند وخاصة إلى الشاعر خوجايجهان ، وقامت في عهده مدارس للشعر الفنائى في بروسة وقسطموني ، وكان وزراؤه يحاكون سيدهم في هذه الناحية ويمضدون الحركة العلمية والأدبية .

وكان أربعة منهم ينظمون الشعر ، ومنهم أحمد باشا الذى وضع أسلوب الشعر الغزلى في اللغة التركية ، ومنهم خضر باى زاده سنان باشا

صاحب تضرع نامه وجزرى قاسم الذى لقب فى مجلس الأدب بصافى
وقرمانى محمد باشا ولقب بنشاني وأما السلطان نفسه فلقب بعونى .
وفى عهده نظم الشاعر حمدى قصة ليلى والمجنون باللغة التركية
تقليداً للأجانب ، كما نظم قصة يوسف وزليخا ، وأما الشهدى الشاعر
فلقد حاول أن يكتب التاريخ العثماني نظماً على طريقة الملاحم تقليداً
للردوى فى شاهنامه ، لكنه توفى بعد أن نظم أربعة آلاف بيت ،
ومنهم جلشنى الذى كتب عشرين ألف بيت على طراز مشوى . ومن
الشعراء آلهى الذى ألف زاد المشتاقين وتناجى الأرواح . ومن السيدات
الشاعرات مهري وهى من بلدة أماسيا ، وزينب وهى من قسطنطينية ،
ونالت هاتان الشاعرتان عطف السلطان ، وهنا يجب ألا ننسى أن
الأمير جم ، فلقد كان شاعراً عظيم الشأن يحسن تذوق الفن .
وأما تقدير السلطان لنواحي الفن فيظهر فى واده بالموسيقى ، ويبدو
واضحاً فى استدعائه لبلىنى إلى استانبول حيث أكرمه إكراماً عظيماً
وكان يقدره ويعجب به ويتابع عمله ويتبسط معه . ولقد قام بلىنى
برسم صور للسلطان الفاتح منها صورة كبيرة لا تزال موجودة ، ورسم
صورة أخرى منها صورة كبيرة يبين فيها استقبال سفير فى الاستانة ،
وعمل بلىنى للسلطان مداليات على بعضها صورة الفاتح كتب حولها

باللاتينية ما ترجمته « السلطان محمد الثاني الإمبراطور العظيم » وعلى
ظهرها ثلاثة تيجان تمثل الإمبراطوريات التي يحكمها السلطان . ولقد
أهداه الفاتح عند انتهائه من مهمته قلادة ذهبية وعطية سنوية ومنحه
رتبة البكوية .

لقد كان عصر الفاتح عصراً زاخراً بالفتوحات ، عصر تنظيم
وبناء ، عصراً ناضراً برجال العلم والدين والأدب والشعر .

ويقدر المسلمون في كافة أقطار الأرض أعمال الفاتح ويرون فيه
بطلاً من أبطال الإسلام وزعيماً من زعمائه . وأما الأتراك فلقد تعلقوا
بسلاطنتهم العظيم ، فهم يفخرون به ويمجدون أعماله العظيمة ويمجولون ذكراه

| | |
|--------------------|-------------------|
| هر كوشه سنده دهر ك | نام بقا مدارك |
| شامسته در ديناسه | عالم سنك مزارك |
| بيت خدايه قوشمش | جاهك مطاع اسلام |
| طورمش باشكده بكار | برقوم تر به دارك |
| ميدان حربي فيلدك | سن تختكاه شوكت |
| توحيد ايدي مرامك | اسلام ايله انامى |
| بر مجمع سياست | بولدك عقول جسيبان |
| دوران ايدي رقيبك | الله ايدي نكارك |

(إن إسمك الخالد لباقي في كل ركن من أركان العالم
وجدير أن يقال أن العالم بأسره قبرك
وإن ضريحك المشيد في بيت الله مطاع للإسلام
ولقد وقف القوم كلهم (الأتراك) يجرسون ضريحك
جعلت ميدان الحرب مقراً لعرشك العظيم
كان غرضك توحيد الأنام بالإسلام
واجتمع لهذا الغرض علمك ومقدرتك
لبثت في الدهر لحظة وكل لحظة أصبحت عهداً
والدهر كان رقيبك والله كان حبيبك (١)

(١) الشاعر التركي المشهور عبد الحق حامد . على قبر الفاتح .